الـدَّارُ الآخِـرَةُ
(٢٥)
الْقصَاصُ بَيْنَ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

للشيخ / ندا أبو أحمد

الدَّارُ الآخِرَة

الْقصَاصُ بَيْنَ الْخَلْقِ وَرَدُّ الْمَظَالِمِ

تمهيد

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.....

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء: ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن التعامل بين الناس في الدنيا يكون بالدرهم والدينار، لكن في الآخرة سيكون التعامل بالحسنات والسيئات، ورأس مال العبد في هذا اليوم حسناته، فمِنَ الناس مَن يأتي بحسنات يوم القيامة لكن عليه مظالم للعباد، فيأخذون من حسناته بقدر ما لهم من حقوق.

- فقد أخرج ابن ماجه من حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"مَن مات وعليه دينارٌ أو درهمٌ، قُضِي من حسناته، ليس ثَمَّ دينارٌ ولادرهمٌ"(صحيح الجامع:٦٥٤٦)

ومن الناس مَن تفنى حسناته، ويبقى عليه من المظالم، فتؤخذ من سيئات مَن ظلمهم فتُطْرح عليه، وهذا هو المفلس الذي أخبر عنه النبي ﷺ

- فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"أتدرون مَن المفلس؟ قالوا: المفلس فينا مَن لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أُمَّتِي، مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعْطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار"

- يقول القرطبي ﷺ في كتابه "التذكرة" (ص٢٤٠): "فإن مات الإنسان قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلبَّته، وهذا يقول: ظلمتني، وهذا يقول: شتمتني، وهذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: ذكرتني في الغيبة بما يسوءني، وهذا يقول: جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول: عاملتني فغششتني، وهذا يقول: بايعتني وأخفيت عني عيب متاعك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: رأيتني محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمتني، وهذ يقول: وجدتني مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظلم فداهنت الظالم وما راعيتني، فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم، واحكموا في تلابيبك أيديهم، وأنت مبهور متحيِّر من كثرتهم، وقد ضعفت من مقاومتهم، ومددتَ عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يُخلِّصك من أيديهم، إذا قرع سمعك نداء الجبار ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧]؛ فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتتذكر ما أنذرك الله به على لسان رسوله ﷺ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢]، فما أشد حسرتك في ذلك اليوم إذا وُقِفَ بك على بساط العدل، وشوفهت بخطاب السيئات، وأنت مفلس فقير، عاجز مُهان، لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذراً، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك، وتنقل إلى أخصامك عوضاً عن حقوقهم، فكيف بك يا مسكين في يومٍ ترى فيه صحيفتك خالية من حسناتٍ طال فيها تعبك؟ فتقول: أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك، فتقول: يا رب هذه السيئات ما قارفتها قط، فيقال: هذه سيئات الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المعاملة والمبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة، وسائر أصناف المعاملة، فاتق الله في مظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم. **اهـ بتصرف واختصار.**

• صـور من القصـاص يوم القيـامة:

١ - القصـاص فـي الدمـاء، وهو أول ما يُقضَى به بين الناس:

معلوم لدينا جميعاً أن الله تعالى خلق الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه، وضمن له حق الحياة، وليس لأحد البتَّة أن يسلب هذه الحياة إلا خالقها ﷻ، ولهذا توعَّد كل مَن تجرَّأ على قتل النفس بوعيد شديد، **فقال** ﷻ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾

[النساء:٩٣]

إنه وعيد يخلع القلوب، ويزلزل الأقدام، ويفتِّت الأكباد، وذلك لمَن تجرَّأ على هذا الفعل الشنيع، وخالف كلام رب العالمين، وكلام النبي الأمين ﷺ، ***حيث قال:***

"كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه" (رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ)

- فحرمة المسلم عند الله عظيمة، أعظم من حرمة الكعبة التي شرَّفها الله وكرَّمها

فقد أخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: **"رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحَكِ، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفسُ محمدٍ بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمةً منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيراً"** (السلسلة الصحيحة:٣٤٢٠)

- بل زوال الدنيا بمَن فيها أعظم عند الله من قَتْلِ المسلم بغير حق.

فقد أخرج الترمذي والنسائي عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"لزوال الدنيا أهون على الله من قَتْلِ رجل مسلم" - ***وفي رواية:*** **"من قَتْلِ مؤمنٍ بغير حق"**

(صحيح الجامع:٥٠٧٨)

فإذا علمت أن قتل المؤمن أعظم من زوال الدنيا؛ علمنا خطورة القتل بما لا يمكن للغة البشر أن تصفه، وقد جمعه النبي ﷺ في هذا اللفظ الوجيز.

- إن حرمة الدماء عند الله عظيمة، لذا قال تعالى:

﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾

[المائدة:٣٢]

من أجل هذا قال النبي ﷺ كما عند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ:

"لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن، لَكَبَّهُم الله على وجوههم في النار"

(صحيح الجامع:٥١٢٣)

أحبتي في الله... إن من ورطات الأمور التي لا مخرج منها قتل نفس بغير حق.

فقد أخرج البخاري عن ابن عمر ﷺ قال:

"إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمَن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله"

– فلهذا ولغيره، كانت الدماء أول ما سيقضي الله فيها بين العباد.

كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء"**

ولك أن تتخيل أخي الحبيب أن القيامة قد قامت، وقام الناس من قبورهم جميعاً لرب العالمين، ووقفوا في أرض المحشر حفاة عراة غرلاً، وقد دنت الشمس من رءوسهم بقدر ميل أو ميلين وتصبَّبُوا عرقاً، كل بحسب ذنبه، وجيء بجهنم، ونصبت الموازين، وتطايرت الصحف، وفي هذا اليوم العصيب يأتي المقتول وهو يحمل رأسه على يديه، ويأخذ بيد القاتل ويدنيه من العرش ويقول: "**يا رب، سل هذا لما قتلني**"، **إنه** مشهد يخلع القلوب.

فقد أخرج الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخبُ دماً، فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ حتى يُدْنِيه من العرش" (صحيح الجامع: ٨٠٣١)

– وهنا ندرك كلام النبي ﷺ عندما يقول:

"لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً" (أخرجه البخاري عن ابن عمر ﷺ)

وقوله: **"لا يزال المؤمن مُعنقاً [1] صالحاً ما لم يصب دماً حراماً"** (أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء)

تنبيه وإيضاح:

هل هناك تعارض بين قول النبي ﷺ: "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة"، وبين الحديث السابق: "أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء"

والجواب: لا تعارض بينهما.

(١) المُعنق: طويل العنق، وهو الذي له سوابق في الخير.

- *يقول الحافظ ابن حجر ﷺ في "فتح الباري" (١٨/٣٩٦):*

"ولا يعارض هذا (يقصد حديث عبد الله بن مسعود) *وهو:* "أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء" *وحديث أبي هريرة ﷺ وفيه:* "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته"

(الحديث أخرجه أصحاب السنن)

لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق، والثاني فيما يتعلق بعبادة الخالق.

- ***وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه:***

"أول ما يحاسب العبد عليه صلاته، وأول ما يُقضى بين الناس في الدماء"

وقفة:

لما أراد الحجَّاج قتل سعيد بن جبير، فقال له الحجاج: "اختر أي قتلة أقتلك، فدمغه سعيد بقوله الواثق من عقوبة الله للظالمين : "اختر أنتَ فإن القصاص أمامك" (سير أعلام النبلاء:٤/٣٣٨)

وهناك صور أخرى من القصاص يوم القيامة

٢- *القصاص ممَّن يضرب الناس ظلماً:*

فقد أخرج البخاري في "الأدب المفرد" والبيهقي في "السنن" عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَن ضَرَبَ بسوط ظلماً، أُقتُصَّ منه يوم القيامة" (صحيح الجامع:٦٣٧٤)

- ***وفي "معجم الطبراني الكبير" عن عمار بن ياسر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:***

"مَن ضَرَبَ مملوكه ظلماً، أقيد منه يوم القيامة" (صحيح الجامع:٦٣٧٦)

- ***أخرج الإمام مسلم عن أبي مسعود البدري ﷺ قال:***

"كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفي: اعلم أبا مسعود!! فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله، فإذا هو يقول: "اعلم أبا مسعود أن الله ﷻ أقدر عليك منك على هذا الغلام، فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً - ***وفي رواية:*** "فقلت يا رسول الله!! هو حرٌّ لوجه الله تعالى، فقال: "أما لو لم تفعل لَلَفَحَتْكَ النار"

٣- *القصاص ممَّن قذف مملوكه بالزنا وهو بريء:*

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ:

"مَن قذف مملوكه وهو برئ مما قال؛ جُلِدَ يوم القيامة حدًّا إلا أن يكون كما قال"

- ***وفي رواية:*** "مَن قذف مملوكه بالزنا؛ يقام عليه الحدُّ يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال"

٤- القصاص ممَّن يعذب الناس في الدنيا:

أخرج الإمام مسلم من حديث هشام بن حكيم ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"إن الله تعالى يُعذِّبُ يوم القيامة الذين يُعَذِّبُون الناسَ في الدنيا"

وهذا الصنف من أشدِّ الناس عذاباً يوم القيامة.

فقد أخرج الإمام أحمد والبيهقي عن خالد بن الوليد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"أشد الناس عذابًا للناس في الدنيا؛ أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة"(صحيح الجامع:٩٩٨)

٥- القصاص ممَّن يزني بزوجة غيره، ومات على ذلك دون توبة:

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من حديث بريدة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"حُرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجلٍ من القاعدين يخلفُ رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم؛ إلا وقف له يوم القيامة؛ فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى، قال بريدة: ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ، فقال: فما ظنكم – *زاد النسائي:*

"ترون يدع له من حسناته شيئاً؟"

• دقَّة القصـــاص يـوم القيـــامة:

إذا كانت بين العباد مظالم متبادلة؛ أُقتُصَّ لبعضهم من بعض، فإن تساوى ظُلْم كل واحد منهما للآخر؛ كان كفافاً لا له ولا عليه، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين أخذها.

– أخرج الإمام أحمد والترمذي عن عائشة ﷺ قالت:

"جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونَنِّي، ويعصونَنِّي، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: "إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك، ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل" فتنحَّى الرجل، وجعل يهتف ويبكي فقال له رسول الله ﷺ: أما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]" (صحيح الجامع:٧٨٩٥)

– وأخرج الإمام أحمد أيضاً عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"يَقْتَصُّ الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء[١] من القرناء، وحتي الذَّرة من الذَّرة "

(١) الجماء: هي الجلحاء التي لا قرون لها.

- **خاب وخسر مَن ظَلَمَ، ولم يتحلَّل من المظالم في الدنيا:**

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ [طه:١١١]

فإذا كان هذا هو شأن الظلم؛ فحريٌ بالعباد أن يتَّقُوه ويتجنَّبوه؛ **عملاً بوصية رب العالمين:**

"يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم، فلا تظالموا..." الحديث

(أخرجه مسلم عن أبي ذر ﷺ)

– ونهانا الشرع الحكيم حتى عن ظلم المعاهدين، *فقال النبي الأمين* ﷺ:

"ألا مَن ظلم معاهداً، أو انتقصه حقه، أو كلَّفَه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ منه، فأنا حجيجه يوم القيامة"

– بل وصل الأمر إلى النهي عن ظلم الحيوانات:

فقد بيَّن النبي ﷺ أن امرأة دخلت النار بسبب ظلمها لهرة.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تُطعِمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت"

– وهنا ندرك كلام النبي ﷺ حيث قال: **"اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة"**

ولله در القائل:

أما والله إن الظلم شُؤْمٌ ... ولا زال المسيءُ هو الظَّلُوم

ستعلم يا ظلومُ غداً إذا ... التقينا عند المليكِ مَن المَلُوم

إلى ديَّان يوم الدِّين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

وأود أن أُذَكِّرَ بقوله تعالى:

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿ ٤٢ ﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴿ ٤٣ ﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿ ٤٤ ﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿ ٤٥ ﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿ ٤٦ ﴾ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿ ٤٧ ﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿ ٤٨ ﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿ ٤٩ ﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿ ٥٠ ﴾ لِيَجْزِيَ اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ ٥١ ﴾ هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٥٢]

• التَّحلُّل من المظالم قبل نزول الموت:

فبعد الوقوف على خطورة الأمر، فعلى الإنسان أن يتحلَّل من المظالم في الدنيا، وهذا بمقدوره، لكن بعد الموت حيل بينه وبين ذلك، فلا هو إلى دنياه عائد، ولا في حسناته زائد، وهنا يتمنَّى الإنسان أن لو عاد إلى الدنيا ليردَّ المظالم، لكن حيل بينه وبين ما يشتهي، من أجل هذا حثَّ النبي ﷺ على التحلُّل من المظالم في الدنيا قبل نزول الموت.

- ***فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة*** رضي الله عنه ***عن النبي*** ﷺ ***قال:***

"مَن كانت عنده مظلمة لأخيه من مال أو عرض؛ فليأته فليستحلَّها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أُخِذَ من حسناته فأعطيها هذا وإلا أخذ من سيئات هذا فألقي عليه"

- ***وفي رواية:*** **"مَن كانت لأخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلَّله اليوم قبل أن يؤخذ منه، يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له عمل أُخِذَ من سيئات صاحِبِه فجعلت عليه"**

- وكان النبي ﷺ يخاف أن يظلم أحداً فيَلْقَى الله بهذه المظلمة

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي أن النبي ﷺ قال:

"وإني لأرجو أن ألقَى الله وليس أحدٌ منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال"

موقف جليل من الرسول العظيم ﷺ

"كان النبي ﷺ يوم بدر يعدل صفوف المسلمين وفي يده قدح، وكان سواد بن غزية مستنصلاً من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: استوِ يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتني فأقدني- يعني خذ لي بالحق من نفسك- فكشف الحبيب ﷺ عن بطنه، وقال: استقد يا سواد، فاعتنق سواد وقبَّل بطن النبي ﷺ: فقال النبي: ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال سواد: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير" (رواه الطبراني، ورجاله ثقات ما عدا عبد الله بن جبير ففيه ضعف)

- وتعلَّم الصَّحب الكرام هذا الأدب والخلق من النبي ﷺ

فهاهو أبو بكر- صِدِّيق هذه الأُمَّة-لما أسرع بكلمة في عمر، فقال له: ردَّها عليَّ حتى تكون قصاصاً.

- وحدثت هذه الواقعة أيضاً مع ربيعة بن جعفر، حيث قال له الصِدِّيق، فقال: ردها عليَّ حتى تكون قصاصاً. وهذا الأثر عزاه الحافظ ابن حجر للإمام أحمد، ***ثم قال الحافظ:*** "وفيه استحباب سؤال الاستغفار للتحلُّل من المظلوم"

- وعن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت أنه قال:

"لما حضرت عبادة بن الصامت الوفاة، قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن، يعني إلى الدار، ثم قال: اجمعوا إليَّ موالي، وخدمي وجيراني، ومَن كان يدخل عليّ، فجمعوا له، فقال: إن يومي هذا لا آراه إلا آخر يوم يأتي عليَّ من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة، وإنه لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو والذي نفس عبادة بيده، القصاص يوم القيامة، وأحرّج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي، فقالوا: بل كنت والداً، وكنت مؤدباً، قال: وما قال لخادم قط سوءاً، فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم اشهد" (وصايا العلماء عند الموت: ص ٤٨-٤٩)

• القصاص بين البهائم يوم القيامة

حتى البهائم سيُقتصُّ منها يوم القيامة، فعندما يحشر الله ﷻ الجن والإنس والبهائم ويرد الحقوق إلى أهلها، ويقضى في المظالم، فإنه ﷻ يقضي بين البهائم وهذا لكمال عدله.

- فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر ﷺ:

"أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تَنْطِحَان، فقال النبي ﷺ أبا ذر، هل تدري فيم تَنْطِحَان؟ قلت: لا، قال: ولكن الله يدري، وسيقضي بينهما يوم القيامة" (الصحيحة:٤/٦١٠، حديث رقم ١٩٦٧)

- وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"ألا والذي نفسي بيده ليختصمنَّ كل شيء يوم القيامة حتى الشاتان فيما انتطحتا"

- ففي يوم القيامة ستؤدَّى الحقوق إلى أهلها حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء

يعني لو أن شاة قرناء نطحت شاة جلحاء (أي بدون قرن) في الدنيا، فسيتبدَّل الحال في الآخرة، فتصبح الجلحاء قرناء، والقرناء جلحاء، ثم تنطحها كما نطحتها في الدنيا، ثم يكونا تراباً.

- فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:

"لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء"

- وفي "مسند الإمام أحمد" عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"يَقْتَصُّ الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء[1] من القرناء، وحتي الذَّرة من الذَّرة"

(١) الجماء: هي الجلحاء التي لا قرون لها. (أفاده النووي ﷺ)

- ويعد القصاص بين الدواب يقول الله لها: "كوني تراباً"؛ فتكون تراباً

وهنا يتمنَّى الكافر أن لو كان حيواناً ليصبح تراباً وينتهي أمره-

فقد جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الحاكم وابن جرير عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ﷺ ***قال:*** **"إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، وحشر الخلائق والإنس والجن والدواب والوحوش، فإذا كان ذلك اليوم جعل القصاص بين الدواب، حتى تَقْتَصَّ الشاة الجماء من القرناء بنطحها، فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب، قال لها: كوني تراباً، فيراها الكافر فيقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]"**

(قال الألباني ﷺ في "الصحيحة": ٦٠٧/٤ :إسناده جيد)

وهنا سؤال وهو: كيف يقتصُّ من البهائم وهي غير مكلفة؟

أُشكِل على بعض أهل العلم ما ذكره الرسول ﷺ من حشر البهائم، والاقتصاص لبعضها من بعض، ***يقول الشيخ الألباني*** ﷺ ***كما في "السلسلة الصحيحة" حديث رقم (١٩٢٧):***

"ومن المؤسف أن ترد كل هذه الاحاديث من بعض علماء الكلام بمجرد الرأي، وأعجب منه أن يجنح إليه العلامة الألوسي، ***فقد ذكر في تفسيره "روح المعاني" (٩/٦ ٣٠٠) عند قوله تعالى:***

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، ***فقال*** ﷺ ***:"ومال حُجَّة الإسلام الغزالي وجماعة إلى:*** "أنه لا يحشر غير الثقلين، لعدم كونه مكلفاً، ولا أهلاً لكرامة بوجه، وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحاً لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام، وإلي هذا القول أميل، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول؛ لأن لهم ما يصلح مستنداً في الجملة. والله تعالى أعلم"

فقال الشيخ الألباني ﷺ معلقاً على كلام الألوسي – عفا الله عنا وعنه –:

"وهذا الكلام منه غريب جداً؛ لأنه على خلاف ما نعرفه عنه في كتابه المذكور، من سلوك الجادة في تفسير آيات الكتاب على نهج السلف، دون تأويل أو تعطيل، فما الذي حمله هنا على أن يفسر الحديث على خلاف ما يدل عليه ظاهره، وأن يحمله على أنه كناية عن العدل التام، أليس هذا تكذيباً للحديث المصرح بأنه يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء، ***فيقول هو تبعاً لعلماء الكلام:*** "إنه كناية! أى لا يقاد للشاة الجماء – وهذا كله يقال لو وقفنا بالنظر عند رواية مسلم المذكورة، أما إذا انتقلنا به إلى الروايات الأخرى كحديث الترجمة، وحديث أبي ذر وغيره، فإنها قاطعة في أن القصاص المذكور هو حقيقة وليس كناية، ***ورحم الله الإمام النووي، حيث قال بعد ذكر حديث النبي ﷺ:*** **"لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة؛ حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء":** "هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة، وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعاد الأطفال والمجانين، ومَن لم تبلغه دعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة، **قال الله تعالى:** ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ **[التكوير:٥]**، وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع، وجب حمله على ظاهره، ***قال العلماء:*** "وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء للجلحاء، فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاص مقابلة،

والشاهد من كلام النووي: "وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره" **وبالجملة:** فالقول بحشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض هو الصواب الذي لا يجوز غيره.

لكن يبقى السؤال: ما الحكمة من القصاص بين البهائم وهي غير مكلفة؟

يجيبك عن هذا الشيخ علي القاري في "المرقاة" (٤/٧٦١)، حيث نقل عن ابن الملك في "مبارق الأزهار" (٢/٢٩٣)، أنه قال: فإن قيل: "الشاة غير مكلفة"، فكيف يقتص منها؟ ***قلنا:*** "إن الله تعالى فعَّال لما يريد، ولا يسأل عما يُفْعَل، والحكمة من هذا إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع، بل يقتص حق المظلوم من الظالم. اهـ

– ***وقال الشيخ علي القاري ﷺ:*** "وجملة الأمر أن القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف والقوي والضعيف؟ اهـ **(السلسلة الصحيحة بتصرف واختصار)**

٦- هناك نوع من القصاص يكون بعد المرور على الصراط

وهذا القصاص يكون بين المؤمنين فقط، فبعدما يعبر المؤمنُ الصراط، إذا به يُحْبَس على قنطرة المظالم، ليُقتصَّ منه، وينزل درجات في الجَنَّة بحسب وبقدر ظلمه، ويزداد المظلوم درجات في الجَنَّة بقدر ما له من حقوق، فلا يعود أحد منهم إلى النار مرة أخرى، وهذا من فضل الله وكرمه، فإذا نُقّوا وهُذّبوا أُذن لهم بدخول الجَنَّة.

- وجاء تفصيل ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"إذا خلص المؤمنون من النار[١] حُبسوا بقنطرة بين الجَنَّة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقّوا وهُذّبوا أُذن لهم بدخول الجَنَّة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم بمسكنه في الجَنَّة أدل منه بمسكنه كان له في الدنيا"

- قال الحافظ ابن حجر ﷺ في "فتح الباري" (١١/٤٠٧):

"ولأصل الحديث شاهد من مرسل الحسن، *أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عنه قال:*

"بلغني أن رسول الله ﷺ قال: "يُحبس أهل الجَنَّة بعدما يجوزون الصراط حتى يُؤخَذ لبعضهم من بعض ظلماتهم في الدنيا، ويدخلون الجَنَّة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل"

وقفة:

فعلى الإنسان منَّا أن يتحلَّل في الدنيا من المظالم، وأن يردَّ الحقوق إلى أهلها، فيوم القيامة لا ظلم فيه ولا هضم، وستُردُّ الحقوق إلى أهلها حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

فعلينا جميعاً أن نعمل بقول النبي ﷺ:

"مَن كانت عنده مظلمة لأخيه من مالٍ أو عرضٍ؛ فليأته فليستحلَّها منه قبل أن يؤخذ..."

---

(١) *قال القرطبي ﷺ في "التذكرة":* "ومعنى: "ويخلص المؤمنون من النار" أي يخلصون من الصراط المضروب على النار، ودل هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخرة مختلفو الحال.

وقال مقاتل: "إذا قطعوا جسر جهنم حُبسوا على قنطرة بين الجَنَّة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا وطُيبوا، قال لهم رضوان وأصحابه: سلامٌ عليكم بمعنى التحية طبتم فادخلوها خالدين. اهـ

تخـاصم النـاس يوم القيـامة

مما لا شك فيه أن الطباع سرَّاقة، والصاحب ساحب، فكم من إنسانٍ كان مستقيماً؛ فتغيَّرت أحواله وتبدَّلت آراؤه بسبب أهل الفساد والريب.

وهاهو عمران بن حطان كان رجلاً من التابعين، وكان على خير وصلاح، إلى أن تزوج ابنة عم له وكانت على مذهب الخوارج – وكانت حسناء– وتزوجها طمعاً في هدايتها، لكن هدته هي إلى طريق الخوارج المذموم السقيم، وطفق يطعن في أمير المؤمنين علي ﷺ، بل ويثني على قاتله عبد الرحمن ابن ملجم غاية الثناء، فأخذ ينشد أبياتاً في شأن ابن ملجم قاتل علي ﷺ، ***وفيها:***–

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها	**إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً**
إني لأذكره حينـــاً فأحسبه	**أوفى البرية عند الله ميزانـاً**
أَكْرِم بقومٍ بطونُ الطيرِ قبْرهُم	**لم يخلطوا دينهم بغياً وعدواناً**

(سير أعلام النبلاء للذهبي)

وصدق الحبيب النبي ﷺ حيث قال:

"الرجل على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل " **(أبو داود)**

قال المباركفوري ﷺ في "تحفة الأحوذي"(٧/٤٩):

"فمَن رضيت دينه وخلقه؛ خَالِلْهُ، ومن لا؛ تَجَنَّبَهُ، فإن الطباع سرَّاقة والصحبة مؤثرة في إصلاح الحال أو إفساده". اهـ

فكم من شقيٍ كانت شقاوته بسبب أصحاب السوء، وكم من شخصٍ قد شقي في الجحيم، التي لا يموت فيها ولا يحيا بسبب جليس السوء.

– وأصحاب السوء وإن دامت مودتهم، ومحبتهم في الدنيا؛ إلا أنها سرعان ما تتلاشى وتنقشع يوم القيامة، وتنقلب محبتهم إلى عداوة وبغضاء؛ **قال تعالى:** ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

[الزخرف:٦٧]

فكل خلة ومحبة ستنقطع وتنقلب إلى عداوة، إلا المحبة في الله فهي باقية، فيوم القيامة يتبرَّأ أصحاب السوء من أصحابهم، ويتبرَّأ الضعفاء الذين تابعوا أهل الضلال في ضلالتهم، ويتبرَّأ أهل الطغيان ممَّن تابعوهم على طغيانهم، ويتبرأ التابع من المتبوع.

١ - الخصام بين الأتباع والمتبوعين:

فالخصام والجدال والمناقشات والمحاورات تكون يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين، يحاول كل منهم أن يلقي التبعة على الآخر.

قال تعالى مصوراً هذا المشهد: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ:٣١-٣٣]

في هذه الآيات يقول الأتباع للمتوبعين ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي أنتم حلتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفران فتبعناكم، فأنتم المجرمون، وبالعذاب أنتم جديرون، وله مستحقون.

ويريد هؤلاء الضعفاء أن يُحمِّلُوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا البلاء، ويضيق الذين استكبروا بهم ذرعاً إذ هم في البلاء سواء، عندئذ يردُّون عليهم ويجيبونهم في ذلة مصحوبة بفظاظة وغلظة ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ نعم زيَّنا لكم الحرام لكننا لم نقهركم عليه، فما لنا عليكم من سلطان، نعم عرضنا عليكم الأفلام الساقطة الخليعة، ولم نحملكم على مشاهدتها، نعم عرضنا عليكم المجلات الهابطة، والقصص الخليعة، ولم نحملكم على قرائتها.

نعم عرضنا عليكم الملابس الخليعة الماجنة، ولم نحملكم على لبسها، بل أنتم اشتريتموها، فهل يعذر المسلم في اتباعه للمفسدين المضلين؟ كلا والله لا يعذر؛ لأن المفسدين المتسلطين لن يعذروه بين يدي الله يوم القيامة، فهم يقولون: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

ثم يدرك الجميع أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء، إلا براءة بعضهم من بعض، علم كلٌّ منهم أنه ظالم لنفسه، مستحق العذاب؛ فيندم حين لا ينفع الندم، ويتمنَّى لو كان على الحق والإيمان والهدى والرَّشاد، لكن ولات حين مناص، **فكان حالهم كما قال رب العالمين:**

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾

٢- تخاصم الأتباع مع قادة الضلال من أصحاب الفكر، والنظريات الضالة، والمبادئ المناقضة للإسلام، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ١٩-٣٥]

يقول ابن كثير ﷺ **في "تفسيره"(٣/ ٢١١)عند ذكر هذه الآيات:** "فإنما هو أمر واحد من الله ﷻ يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾،

فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وهذا يقال على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم،

ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ يعني بأزواجهم وأشباههم وأمثالهم، يعني يجئ أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، **ثم قال تعالى:** ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم، ثم ذكر الله تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، **فيقول بعضهم لبعض:** ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ **أي** تحولون بيننا وبين الخير ورَدَدْتُمُونَا الي الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به، **فتقول القادة من الجن والإنس للأتباع:** ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴾ أي بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا، وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا، **قال الله تبارك وتعالى:** ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي الجميع في النار، كلٌّ بحسبه ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا . . .﴾ أي في الدار الدنيا ﴿. . . إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون". اهـ **بتصرف واختصار**

٣- مخاصمة العابدين والمعبودين:

قوله تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾

[الشعراء:٩١-٩٩]

إنهم يخاطبون آلهتهم التي كانوا يعبدونها، معترفين بضلالهم إذ كانوا يعبدونها، ويسوون بينها وبين الخالق، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى مرتبة الخالق، وكلُّ من عبد من دون الله آلهة، فقد سوَّى بين الخالق والمخلوق، وهذا هو الظلم العظيم، **كما قال لقمان لابنه وهو يعظه:**

﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣]

أما الصالحون الأخيار الذين عُبِدُوا وهم لا يعلمون، أو عُبدوا بغير رضاهم كالملائكة وصالحي البشر، فإنهم يتبرَّءون من عابديهم، ويكذبون زعم العابدين وافتراءهم، فإن الملائكة ما طلبت هذه العبادة، ولا رضيت بها، والذين طلبوها هم الجن، كي يضلوا البشر ويوبقوهم، فهؤلاء الضالون عابدون للجن لا للملائكة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١]

وعيسي ابن مريم يتبرَّأ في يوم الدين من الذين اتخذوه إلهاً، وعبدوه من دون الله

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ . . . ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧]

هذا موقف جميع المعبودات التي لم ترضَ باتخاذها آلهة، تتبرأ من عابديها، وتكذبهم في دعواهم، وتقر بعبوديتها لله ربها، ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٨٦-٨٧]

وقال في موضع آخر: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس:٢٨-٣٠]

٤- الخصام بين الضعفاء والمستكبرين:

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١]

هذه الآية تصور لنا هذا الحوار بين الضعفاء، الذين تنازلوا عن حريتهم في التفكير والاعتقاد، وسلَّموا زمام أمرهم للمستكبرين، الذين أضلوهم عن الطريق المستقيم وأخذوهم إلى سواء الجحيم، **فيقول الضعفاء لهم يوم القيامة:** ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي يسألونهم: هل ستدفعون عنا من عذاب الله، **فقد كنتم تقولون لنا في الدنيا:** ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ لكن الله ﷻ يبيِّن زيغ وضلال وكذب هؤلاء، **فقال تعالى:** ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٢﴾ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٢-١٣]

وهنا يرد عليهم الذين استكبروا ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١]

أي: علام تلومونا وقد قضي الأمر؟!، فنحن وإياكم مصيرنا واحد لا خلاص منه ولا فكاك عنه.

ففي هذا الجو المخيم بالخزي والندامة تسقط القيم الزائفة، والمحبة الكاذبة، ويكثر اللوم والجدل والخصام بين الاتباع والمتبوعين، والضعفاء والمستكبرين.

٥- تخاصم الشيطان مع مَن اتَّبَعَهُ:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢]، قضي الأمر، وانتهى الجدل، وسكت الحوار، وهنا يقوم إبليس يخطب فيهم خطبته الشيطانية القاسمة يصبها على أوليائه ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إنها طعنة أليمة نافذة، لا يملكون أن يردُّوها عليه، وقد قضي الأمر وفات الأوان،

ثم قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي. . .﴾ ثم يؤنِّبهم على أن أطاعوه ﴿فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ. . .﴾ نفض يده منهم، وهو الذي وعدهم ومنَّاهم ووسوس لهم، وأما الساعة فلا هم يستطيعون أن يدفعوا عنه العذاب، ولا ينجدوه إذا صرخ من شدة العذاب، ولا هو يستطيع أن يدفع عنهم العذاب، ولا ينجدهم إذا صرخوا من العذاب ﴿مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ ثم يبرأ من إشراكهم به، ويكفر بهذا الإشراك، **فيقول لهم:** ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٦- تخاصم الإنسان مع أعضائه:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢١]

- وأخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال:

"كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: هل تدرون ممَّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلي، قال: فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، ثم يختم على فِيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلي بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فعَنْكُنَّ كنتُ أناضل"

٧- تخاصم الكافر مع قرينه الشيطان:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٣-٢٩]

يقول ابن كثير ﷺ في تفسير هذه الآيات:

"يقول الله تعالى مخبراً عن الملك المُوكَّل بعمل بن آدم إنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي معتد محصر بلا زيادة ولا نقصان، ***وقال مجاهد:*** "هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكَّلتني به قد أحضرته، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل، فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق من صلة وصدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد، ***وقال قتادة:*** "معتد في منطقه وسيره وأمره، ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي شاك في أمره، مريب لمَن نظر في أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾، ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ وهو الشيطان الذي وُكِّل به، ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ فيتبرأ منه شيطانه، ويقول: ربنا ما أضللته، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل، معانداً للحق؛ **كما أخبر ﷻ في الآية الأخرى في قوله:** ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢]، **وقوله تبارك وتعالى:** ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ وذلك أن الإنسي وقرينه يختصمان بين يدي الحق تعالى، فيقول الإنسي: يا رب هذا أضلني ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان:٢٩]، **ويقول الشيطان:** ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي عن منهج الحق، **فيقول الرب ﷻ لهما:** ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي قد أعذرت إليكم علي ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبيِّنات والبراهين، ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾، ***قال مجاهد:*** "يعني قد قضيت ما أنا قاض"، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾أي لست أُعذِّبُ أحداً بذنب أحدٍ، ولكن لا أعذِّبُ أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه .اهـ (مختصر ابن كثير:٣/ ٤١٥- ٤١٦، بتصرف واختصار)

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴿٣٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٩]

يقول ابن كثير ﷺ في تفسير هذه الآيات:

"**يقول الله تعالى:** ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، **كقوله تعالى:** ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى...﴾ [النساء:١١٥]، **وكقوله:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، **ولهذا قال تبارك وتعالى هاهنا:** ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴿٣٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءنَا...﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيِّض له من الشياطين مَن يضله ويهديه إلي صراط الجحيم، فإذا وافى الله ﷻ يوم القيامة يتبرأ منه الشيطان الذي وُكِّل به ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾، **وقال بعضهم في قوله تعالى:** ﴿حَتَّى إِذَا جَاءنَا﴾ يعني القرين والمقارن، ***قال سعيد الجريري:*** "بلغنا أن الكافر إذا بُعِثَ من قبره يوم القيامة شفع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار، **فذلك حين يقول:** ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ والمراد بالمشرقين هاهنا هو ما بين المشرق والمغرب، وإنما استعمل هاهنا تغليباً، ***كما يقال:*** "القمران والعمران والأبوان"، **ثم قال:** ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم. اهـ

(مختصر تفسير ابن كثير:٣/٣٢٧، بتصرف واختصار)

٨- بل يصل الأمر إلى تخاصم البدن مع الروح:

قال ابن كثير في "تفسيره"(٦/ ٩٢): وقد روى ابن منده في كتاب "الروح" عن ابن عباس ﷺ أنه قال: "يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنتَ فعلتَ، ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت، فيبعث الله ملكاً يفصل بينهما، فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير، والآخر ضرير دخلا بستاناً، فقال المقعد للضرير: إني أري هاهنا ثماراً، ولكن لا أصل إليها، فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما، فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتما على أنفسكما، يعني أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه"

وأخيـراً: التخـاصم في النـار:

فعندما يدخل أهلُ النارِ النارَ، يتمنَّى هؤلاء الذين اتبعوا أهل الضلال والفساد أن لو كانوا أطاعوا الله واتَّبعوا الرسول، ثم يدعون على مَن أغواهم وأضلهم السبيل، ويطلبون لهم المزيد من العذاب.

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]

ثم يطلبون من الله أن يريَهم الذين أضلوهم ليدوسوهم بأقدامهم، وقد كانوا في الدنيا يُقبِّلُون أقدامهم ويرفعونهم فوق رءوسهم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت:٢٩]

فإذا ما تلاقى هؤلاء وهؤلاء في النار؛ يلعن بعضهم بعضاً، ويتمنَّى بعضهم لبعض مزيداً من العذاب؛

قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٨]

ويصف الحق هذا التخاصم بين أهل النار عند دخولهم النار فيقول: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص:٥٥-٦٤]

فهؤلاء الذين كان بعضهم يُرحِّب ببعض في الحياة الدنيا، ويوقِّر بعضهم بعضاً، يتحوَّل حالهم في ذلك اليوم؛ **فيقول بعضهم لبعض:** ﴿ . . . لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [ص:٥٩-٦٠]، أي أنتم الذين تسببتم لنا في هذا العذاب، فبئس المستقر تستقرون فيه ويتمنَّى كل فريق على الله تعالى أن يزيد مَن كانوا سبباً في إغوائه وإضلاله من العذاب والآلام، **فيقولون:** ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ إن هذا التخاصم بين أهل النار حق كائن لا شك فيه، **كذلك قال ربنا تبارك وتعالى:** ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾

وفي موضع آخر يذكر الله تعالى تخاصم الضعفاء والسادة المستكبرين، **فيقول:** ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٧-٤٨]

وهنا يتمنَّى الأتباع المقلدين لأهل الضلال والزيغ، وكذلك الضعفاء الذين اتبعوا سادتهم وكبراءهم على الباطل، أن لو عادوا إلى الدنيا ليتبرءوا ممَّن اتبعوهم في الدنيا، لكن حيل بينهم وبين ما يشتهون، فلا هم إلى دنياهم عائدون، ولا فيما يتمنون يجدون، ويصف الله تعالى لنا هذا المشهد المخزي، **فقال تعالى:**

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧]

وهنا تبدأ الزفرات والحسرات، والتي يُعبِّرون عنها بِعَضِّ الأيدي يوم لا ينفع عضُّ الأيدي؛

كما قال ربي: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]

فلا نجاة إلا بالتَّبرُّأ من هؤلاء المُضِلِّين، واتِّباع سبيل المؤمنين، وإمام المتقين سيد المرسلين عليه أكمل الصلوات وأتم التسليم ﷺ.

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة

نسأل الله أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منَّا بقبول حسن، كما أسأله ﷻ أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صواباً فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ مَن لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحاً ولوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه نصيب

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.....

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك